# المبحث السادس
# مَعْنَى الطَّاغُوتِ وَالْوَثَنِ وَالصَّنَمِ

عباد الله يتميزون عن عَبَدةِ الطواغيت والأوثان والأصنام، وذلك بإخلاصهم عبادتَهم ورغبتهم ورهبتهم لله تعالى وحدَه، واجتنابِهم عبادةَ كلِّ شيءٍ سواه، ولما كان الأمر كذلك فإنه اهتم أهل السنة والجماعة بمعرفة معنى الطاغوت والوَثن والصنم، وبيانه للناس، والتحذير عن شره، فهو من باب معرفة الشر لا للشر، ولكن للوقاية عنه، من باب قول الشاعر:

عرفتُ الشَّرَّ لا للشَّـــ * * * ـــرِّ لكـــنْ لتوقِّـــيه

فَمَن لا يَعـــرِف الشرَّ * * * مِنَ النَّاس يَقـــعْ فيه[1]

فإنَّ هذه حالُ أتباعِ المرسَلين ووَرثةِ النبيين في فطانتهم ومعرفتهم للشر، وعلمِهم أنَّ السّائرَ على الدَّرب بلا معرفةِ شرٍّ ذي شرٍّ كالسَّائرِ بلا دَليل، ومَن فارق الدَّليل ضلَّ السَّبيل.[2]

ولذلك كان إمامُ الموحِّدين إبراهيمُ عليه السلام يقول في دعائه كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٦﴾ ﴾[3].

فمعرفة المسلم لمعنى هذه الألفاظ فيها سلامته من الشرور، ووقايته عن الوقوع في المحظور، وإنه لَمِن المقاصد الحسَنة لدى المسلم أن يعرِف الشر مخافةَ أن يُدرِكه.

---

(١) الأبيات لأبي فراس الحارث بن سعيد، كما في يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر: لعبد الملك الثعالبي: الباب الثالث: (١/٨٤).

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة: لابن القيم: (١/٣٠٤).

(٣) سورة إبراهيم: (٣٥-٣٦).

وبعد..! فإنه قد وردت تعريفات عديدة للفظ الطاغوت والوثن والصنم على ألسنة أهلِ السُّنة والجماعة قديماً وحديثاً، واختلفتْ عباراتهم وألفاظهم في بيان ذلك، ومقصودهم في ذلك واحد؛ وسأذكر عن كل واحد من الألفاظ الثلاثة أقوال السلف في بيان المعنى أو المراد منه، ثم أعقب ذلك بتقرير الشيخ السندي رحمه الله لذلك.

**فأما الطاغوت** فقالوا: إنه في اللغة من الطغيان، وهو مجاوزة الحد والقَدْر، فكل شيء جاوز قدْرَه وحده فقد طغى.(١)

والمراد منه في الشرع: يقول عمر بن الخطاب ﷺ : ( الطاغوت: الشيطان )(٢).

وبه قال مجاهد والضحاك وقتادة رحمهم الله تعالى(٣).

وقيل أنَّ الطَّواغيت: ( كُهَّانٌ؛ تَنَزَّلُ عليها شياطِينُ، يُلقون على ألسنتِهم وقلوبهم )(٤).

وأخرج الطبري عن أبي العالية رحمهما الله في تفسيره أنه قال: ( هو السَّاحِر )(٥).

والملاحظ في هذه التعريفات أنَّها وردتْ بتفسيره ببعض أفراده، وإلا فالطاغوت شيء أجْمَعُ معنىً من ذلك؛ ولعلَّ أجمعَ ما يكونُ لهذه التعريفات وأوجزها هو تعريف

---

(١) انظر: لسان العرب: لابن منظور: باب الطاء (٤/٢٦٧٧-٢٦٧٨).

(٢) أثر عمر علَّقه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ (٦/٤٥ برقم) ؛ وأخرجه الطبري في: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: (٤/٥٥٦) ؛ وابن أبي حاتم في تفسيره: (٢/٤٩٥ برقم٢٦١٨).

(٣) أخرج آثارهم جميعاً الطبري في: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: (٤/٥٥٦-٥٥٧).

(٤) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للطبري: (٤/٥٥٨).

(٥) المصدر نفسه: (٤/٥٥٧).

الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى حيث قال: ( الطاغوت: ما تجاوز به العَبْدُ حدَّه مِن معبودٍ أو متبوعٍ أو مُطاع )[1].

ومثله قول الإمام الطبري رحمه الله في الطاغوت: ( أنه كل ذي طُغيانٍ على الله فعُبِد من دونه، إما بقهر منه لمن عبَده، وإما بطاعة ممن عبَده له، إنساناً كان ذلك المعبود، أو شيطاناً، أو وثناً، أو صنماً، أو كائنا ما كان من شيء )[2].

فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إلى غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله، فهذه هي طواغيت العالم.[3]

وقد بيَّن السلف أنه لا يدخل في اسم الطاغوت إلا مَن ارتضى بذلك، وليس كما يُتوَهَّم من قول بعضهم أنَّ لفظ الطاغوت يعمهم وغيرهم، كقول مالك رحمه الله: ( الطاغوت: ما يعبدون من دون الله )[4] وهو صحيح؛ لكن لا بُدَّ فيه من استثناء مَن لا يرضى بعبادته[5]، أما من رضي بها لنفسه فهو الطاغوت.

وأما **الأوثان والأصنام** فقد وردت كذلك جمعٌ من أقوالهم في بيان معناهما، واختلفت العبارات في ذلك، ولهم في ذلك مسلكان:

**أ ــ الأوَّل:** اعتبارهما بمعنىً واحد؛

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين: لابن القيم: (٢/٩٢).

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للطبري: (٤/٥٥٨).

(٣) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين: لابن القيم: (٢/٩٢) ؛ وتيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد: لسليمان بن عبد الله: (١/١٤١).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره: (٢/٤٩٥ برقم٢٦٢٢).

(٥) انظر: تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد: لسليمان بن عبد الله: (١/١٤٢).

يقول الإمام الطَّبري رحمه الله تعالى: ( والصَّنَم: التِّمثالُ من حَجرٍ أو خَشبٍ أو مِن غير ذلك، في صورة إنسان، وهو الوَثَن. وقد يقال للصُّورة المصوَّرة على صورة الإنسان في الحائِط وغيره: صَنَمٌ ووَثَنٌ )[١].

وهذا ظاهره أنه يرى أن الصَّنَم والوَثن بمعنى واحد، إلا أنه ورد من قوله في مقامٍ آخر ما قدْ فرَّق فيه بينَهما، كما سيأتي.

وقال ابن منظور في «لسان العرب»: ( الصَّنَم معروفٌ واحد الأصنام، يُقال: إنه معَرَّبُ شَمَنْ، وهو الوَثَن )[٢].

وخلاصة ذلك أنه لا يوجد فرق بين معنى الوثن والصَّنم، بل إنَّ كل أحد منهما يُطلق على الآخر.

**ب ــ المسلك الثاني:** وهو التفريق بينهما:

فمنهم من خصَّ الصَّنَم بصورة معيَّنةٍ مِن الصُّور بخلاف الوَثن؛ كصُورة الحيوان، كما قيل: ( الصَّنَم هو ما كان على صورةِ حيوان، أما ما عُبد وهو على غير صورة حيوان، كالشَّجَر والحَجَر والقَبْر فهذا يُسمى: وثناً، فالوثن أعَمُّ من الصَّنم؛ لأنَّ الصَّنم لا يُطلق إلاَّ على التِّمثال، وأما الوَثن فيُطلق على التِّمثال وغيره، حتى القبر وثن إذا عُبِد،

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للطبري: (٩/٣٤٦) ؛ وانظر: تيسير العزيز الحميد: لسليمان بن عبد الله: (٢/٢٤٦).

(٢) لسان العرَب: لابن منظور: باب الصاد (٤/٢٥١١) ؛ وانظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري: لابن حجر العسقلاني: (٤/٤٢٤).

قال ﷺ : ﴿اللّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِيْ وَثَناً يُعْبَدُ﴾[1]، فالوثن كلُّ ما عُبد من دون الله على أيِّ شكل كان )[2].

أو كالبَشر: كقول مجاهد رحمه الله: ( الصَّنَمُ: ما كان منحوتاً على صورة البشر، والوَثنُ: ما كان منحوتاً على غير ذلك )[3] وفيه أنَّ الوَثَن أيضاً يُطلَق على ما له صُورة، إلا أنه خصّه بما كان منحوتاً على صورةِ غير بشر.

ومنهم مَن خصَّ الصَّنم بالتِّمْثال المصوَّر، أيَّ صُورةٍ كانَتْ، وأمَّا الوَثَن فهو ما لا صورةَ له أصلاً؛ كقول الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره «جامع البيان»: ( والصَّنم: التِّمْثال المصوَّر، ما لم يكن صنَماً[4] فهو وَثن )[5] أيْ: ما لا يكون صَنَماً، حيث لا صُورةَ له فهو الوَثَن.

وقيل: ( الفرْق بَيْن الوَثن والصَّنم: أنَّ الوَثن ما كان له جُثّة مِن خَشب أو حَجَرٍ أو فِضّة، يُنحَت ويُعبَد، والصَّنم الصُّورة بلا جُثّة )[6].

---

(١) رواه أحمد في مسنده: (٣١٤/١٢ برقم٧٣٥٨) ؛ وقال محققه: إسناده قوي. ورواه الحميدي في مسنده: (٢٢٤/٢ برقم١٠٥٥) ، وقال محققه حسين سليم أسد: إسناده صحيح. قلت: وصحَّحَ سندَه الألباني في: تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد: (ص٢٥).

(٢) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد: صالح بن فوزان الفوزان: (٢٣٧/١-٢٣٨) ؛ وانظر: تيسير العزيز الحميد: لسليمان بن عبد الله: (٢٤٥/١ ، ٣٨٠).

(٣) نسبه الشيخ سليمان بن عبد الله في كتابه: تيسير العزيز الحميد: (٢٤٥/٢) إلى الطبري عن مجاهد، و لم أجده بعد البحث في مظانه من كتبه.

(٤) كذا ورد في التفسير، وقال محققه: (كذا في النسخ؛ ولعلَّ الصَّواب: مصوّراً).

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للطبري: (٦٨٧/١٣) ؛ وانظر: تيسير العزيز الحميد: لسليمان بن عبد الله: (٢٤٥/٢) ؛ ولسان العرب: لابن منظور: باب الصاد (٢٥١١/٤-٢٥١٢).

(٦) لسان العرب: لابن منظور: باب الصاد (٢٥١٢/٤).

وعليه فبَيْنَهما عُمومٌ وخُصوص وجهي، فإنْ كان مصوَّراً فهو وثَنٌ وصَنَم.[1]

وخلاصة هذا الذي سبق من تقرير أهل السنة وجماعُه أنّ كلَّ ما عُبد من دون الله عز وجل يقال له: الطاغوت، أو الصَّنم، أو الوَثن؛ وقد يكون ذلك المعبود انساناً، أو جانًّا أو حيواناً؛ كالكُهَّان، والشياطين من الانس والجن، والثعابين، وغير ذلك، أو يكون شيئاً من الجمادات، كالأحجار والأشجار، والقِباب، والقُبور، وما شابه ذلك من الأشياء، وكلُّ ذلك باطل، والله تعالى هو الحَقّ، وهو العَلِيُّ الكبير.

(١) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري: لابن حجر العسقلاني: (٤/٤٢٤).

- **تقرير الشيخ بديع الدين السندي لعقيدة أهل السنة فيما يتعلق بهذا المبحث:**

مِنْ كمال نُصح الشيخ السندي رحمه الله لأهل بلدته خاصَّة، ولسائر المسلمين عامةً أنْ بيَّنَ لهم ما يجب عليهم حذْرُه واجتنابُه مِن الطواغيت والأوثان والأصنام، اقتداءً في ذلك بأئمة أهل السنة والجماعة، الذين حذَّروا الأُمة مِن شرِّ ذلك أشدَّ تحذير.

وقد بيَّنَ الشيخ ورود هذه الألفاظ الثلاثة –الطاغوت، والوثَن، والصَّنَم– في القرآن المجيد، مع ذكر مواقعها في السُّوَر، كما وضَّح معانيها والمرادَ منها، وذكر لها أمثلة من الواقع، والذي يتضمن التحذير منها وبيانَ خطرها ليجانبها كلُّ عاقلٍ لبيب.

وستتبين هذه الأمور المذكورة في هذا المقام فيما يلي من السُّطور:

**أولاً_ ورود هذه الألفاظ في القرآن الكريم:**

بيَّنَ الشيخ السندي أنَّ الله تعالى ذَكر في قرآنه المجيد هذه الألفاظ الثلاثة، في عدد من السُّوَر القرآنية، يقول رحمه الله: ( ذُكر في القرآن المجيد اصطلاحات ثلاثة، هي:

١. الطاغوت: وذلك في سورة البقرة، وسورة النساء، وسورة النحل.

٢. الأصنام: وذلك في سورة الأنعام، وسورة إبراهيم، وسورة الشعراء.

٣. الأوثان: وذلك في سورتي الحج، والعنكبوت )[١].

والشيخ مع إشارته إلى تلك السور لم يورِدِ الآيات القرآنية التي وردت فيها هذه الألفاظ اختصاراً، وإنما –كما رأينا– أشار إلى مواضع ورود هذه الألفاظ الثلاثة بذكر أسماء السُّوَر؛

---

(١) انظر: توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٤٢).

فسأستخرج هنا للقارئ الكريم هذه الآيات الكريمات من تلك السُّوَر التي سماها الشيخ، لكي يتضح سياق الآيات التي وردت فيها، ويقترِب المعنى المراد منها في الأذهان، فهي كما يلي:

**أ‌ـ آيات وردت بذكر الطاغوت:**

فقد ذكر الشيخ رحمه الله تعالى بعضاً من مواضع ورود لفظة الطاغوت في القرآن الكريم، وهي في ثلاثِ سُوَر؛ هُنَّ:

- **سورة البقرة:** حيث يقول الله تعالى فيها: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾[1].

**وسورة النساء:** في موضعين منها، هما: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾[2]، وقوله جلّ شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾[3].

- **وسورة النحل:** وفيها قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾[4].

---

(١) سورة البقرة: (٢٥٧).

(٢) سورة النساء: (٦٠).

(٣) سورة النساء: (٧٦).

(٤) سورة النحل: (٣٦).

وقد وردت لفظة الطاغوت في غيرها من السور كذلك، وإنما اكتفيت بذكر ما أشار إليه الشيخ منها.

**ب_ آيات وردت بذكر الأوثان:** وذلك في سورتَين من القرآن الكريم، هما:

- **سورة الحج:** قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾[1].
- **وسورة العنكبوت:** وذلك أنْ ذكر الله تعالى عن نبيه إبراهيم عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ إلى أنْ قال: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[2].

**جـ_ آيات وردت بذكر الأصنام:** ومواضعُ ورودِها مما ذكرها الشيخ السندي سُوَرٌ ثلاثة:

- **سورة الأنعام:** يقول الرب تبارك وتعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾[3].
- **وسورة إبراهيم:** قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة الحج: (٣٠).

(٢) سورة العنكبوت: (١٧ ، ٢٥).

(٣) سورة الأنعام: (٧٤).

(٤) سورة إبراهيم: (٣٥).

- **وسورة الشعراء:** وفيها قوله سبحانه: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾[1].

فهذه هي المواقع التي وردت فيها هذه الألفاظ الثلاثة من السور القرآنية التي ذكرها الشيخ السندي رحمه الله، حذَّرنا الله تعالى فيها عنها، وبيَّن بُطلانها، وأنها لا تنفع ولا تضر، إلى غير ذلك مما احتوت عليه هذه الآيات الكريمات من الفوائد والمسائل.

وكذلك هنالك نصوص من أحاديث النبي ﷺ التي تضمنت التحذير عنها وإبطالها، أذكر فيما يلي حديثاً واحداً مما ذكره الشيخ السندي رحمه الله تعالى:

وهو حديثُ كردم بن سُفيان[2] أنه: ﴿سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ نَذْرٍ نَذَرَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : أَلِوَثَنٍ أَوْ لِنُصُبٍ[3]؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ: فَأَوْفِ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا جَعَلْتَ لَهُ، انْحَرْ عَلَى بُوَانَةَ[4]، وَأَوْفِ بِنَذْرِكَ﴾[5].

---

(١) سورة الشعراء: (٧١).

(٢) هو كردم بن سفيان بن أبان الثقفي، أبو ميمونة، قال البخاري وابن السكن وابن حبان: له صحبة. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة: لابن حجر العسقلاني: (٢٥٣/٩ برقم٧٤٢٣) ؛ ومعجم الصحابة: للبَغَوي: (١٤٤/٥ برقم٥٩) ؛ ومعجم الصحابة: لابن قانع: (٣٩٣/٢ برقم٩٤٩).

(٣) النُّصُب: واحد الأنصاب، وكان أبو عمرو يقول: نَصْب بفتح أوَّلِه ويسكن الحرف الثاني منه. والأنصاب: الحجارة التي كانوا يعبدونها. انظر: مجاز القرآن: لأبي عُبيدة معمر ابن المثنى التميمي: (١٥٢/١).

(٤) بوانة: هضبة وراء ينبع قريبة من ساحل البحر. معجم البلدان: للحموي: باب الباء والواو وما يليهما: (٥٠٥/١).

(٥) رواه أحمد في مسنده: (١٩٥/٢٤ برقم١٥٤٥٦) ؛ وقال محققه شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح. قلتُ: وقد أخرج نحوه ابن ماجه: كتاب الكفارات، باب الوفاء بالنذر (ص٣٦٧ برقم٢١٣١) وفيه حكم الألباني بالصحة.

يقول الشيخ رحمه الله عن معنى الوثن الوارد في الحديث المذكور تعليقاً عليه: ( الوَثن: هو الصنم أو ما يُعبد من دون الله )[1].

وبيِّنٌ في جميع هذه الآيات البينات والأحاديث الشريفات أنَّ الألفاظ الثلاثة المبحوث عنها جاءت في سياق الذم، والإنكارِ والتحذير، وأنَّ عبادتها من الإفك المبين، وسيتجلى ذلك من خلال معرفتنا لمعاني هذه الألفاظ الثلاثة، فإنَّ ألفاظاً كهذه يجب أنْ نقف على المعنى المراد منها لكي نجانبها ونحذرَ عن شرها، وذلك هو الآتي فيما يلي من البيان، والله المستعان.

---

(١) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٢٢١).

**ثانياً_ المعنى المراد من هذه الألفاظ (الطاغوت، والوثن، والصنم):**

لما كانت بعض الكلمات تخفى حقائقها على كثير من الناس، ولا يتضح لهم المراد منها إلا ببيان معناها اهتم الشيخ السندي ببيان معاني الألفاظ الغامضة، إما من حيث وضع اللغة، أو من حيث مراد الشارع منها، ومن تلك الألفاظ التي وضح الشيخ المراد منها لفظ: الطاغوت، والوثن، والصَّنم.

ففيما يلي نطَّلِع على معاني هذه الألفاظ الثلاثة بالتفصيل، ونقف على المقصود منها، على ما بيَّنه الشيخ رحمه الله تعالى.

**١/ معنى لفظ الطَّاغُوت:**

الطَّاغوت على وزن فَعَلُوْت؛ لأنَّ أصلَ الكلمة: طَغيُوْت، مأخوذ مِن: طَغَى يَطْغَى طَغْياً، وطُغياناً؛ وهو تجاوز القَدْر والحَدّ؛

يقول الشيخ السندي رحمه الله: ( جاء في «لسان العرب»: أنَّ ''الطَّاغوت'' يَقعُ على الواحد والجمع، والمذكَّر والمؤنَّث، وزنُه فَعَلُوتٌ، إنما هو طَغَيُوتٌ؛ قُدِّمتِ الياءُ قبل الغَيْن، وهي مفتوحة، وقبلها فَتْحَةٌ، وقُلِبَتْ أَلِفاً، وهي مشتقة مِن: ''طَغَى'' )[1].

إلى أنْ قال: ( وهذا اللفظ مأخوذ من ''طَغَىَ''؛ ففي «لسان العرب»: طَغَى، يَطْغى طَغْياً ويَطْغُو طُغْياناً؛ جاوَزَ القَدْرَ، وارتفع، وغَلا في الكُفْرِ".[2]

يعني: طَغَى —الفعل الماضي- أيْ: تجاوزَ الحَدّ والقَدْر )[3].

---

(١) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٤٢) ؛ وانظر: لسان العرب: لابن منظور: باب الطاء (٤/٢٦٧٨).

(٢) لسان العرب: لابن منظور: باب الطاء (٤/٢٦٧٧).

(٣) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٤٢-٤٣).

فتبيَّنَ من ذلك أنَّ ''الطَّاغوت'' هو مأخوذ من الطُّغيان الذي هو تجاوز حدّ الشيء وقدْره، فكلُّ شيء جاوز القَدْر فقد طَغَى؛ هذا من حيث استعماله في لغة العرَب.

أمّا معناه في الشرع: فالطّاغوت هو كلُّ ما عُبد من دون الله عز وجلّ، أو أُطِيعَ طاعةً مُطلَقة في مقابلِ طاعته سبحانه؛

هكذا قرَّر الشيخ السندي رحمه الله تعالى معناه، حيث يقول: ( والمراد منه: كلُّ شيء يُعبَد مِن دون الله تعالى، أو مَن يُطاع في مقابل طاعته تعالى؛ ولذلك يُطلَق ويُراد به الشيطان، أو المُنَجِّم[1]، أو الذي يُضِلُّ الناسَ بحِرفته، سواء كان مِن الإنس أم من الجِنّ )[2].

ثم يقول رحمه الله شارحاً هذا الذي ذكره من تعريف الطاغوت: ( فإنَّ الأشياءَ كلَّها سوى الله تعالى معدودة في عِباده، وله عابدة ذليلة، ولاسيما الإنس والجن، حيث خلقهما الله تعالى لمحض عبادته، والآيةُ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[3] شاهدةٌ على ذلك، فمَن كان مقامه محضُ فعلِ العبودية والاتباع، لو أَمَرَ بعبادة نفسه أو ألزَم على الناس اتباعَه فقد جاوز حدَّه وقَدْرَه، حتى صارَ طاغوتاً.

وكذلك مَن ألزم على نفسه عبادتَه أو اتباعَه، فقد جعله طاغوتاً بمجاوزته قدرَه ومقامه الذي وهبه الله إياه.

كما أنَّه إذا تعدَّت مِياهُ الأنهار عن حدِّها يقال: إنه قد طَغى الماء. وهذا الاستعمال موجود في القرآن المجيد؛ يقول الله تعالى في شأن قصة سَيِّدنا نوحٍ ﷺ: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾[4].

---

(١) المُنَجِّمُ: الذي ينظر في النُّجوم يَحْسُب مَواقِيتَها وسَيْرَها. لسان العرب: لابن منظور: باب النون: (٤٣٥٨/٦).

(٢) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٤٢).

(٣) سورة الذاريات: (٥٦).

(٤) سورة الحاقة: (١١).

فكل من عُبد في الدنيا، أو أطيع في حُكمه في مخالفة حُكم الله تعالى، يُطلق عليه الطاغوت؛ لأن العبادة محض حق الله تعالى )[١].

وبهذا يتبين أنَّ الشيخ السندي رحمه الله تعالى يرى أنَّ ''الطاغوت'' مأخوذ من الطُّغْيان، وهو مجاوزة القَدْر والحَدّ، والمراد منه في الشرع: كل ما عُبد من دون الله عز وجل ومَن أُطِيعَ طاعةً في مقابل طاعته، فما كان كذلك فهو الطَّاغوت، ومن عَبد غير الله تعالى، أو أطاعه طاعةً في مقابل طاعته فقد جعله طاغوتاً.

- **تنبـــيه!**

طاعة الرسول ﷺ هي في حقيقة الأمر طاعة الله سبحانه، وليست طاعته في معصية الله تعالى، ولذلك فإنه لا يُطلَق عليه اسمُ الطاغوت، حاشاه من ذلك، لأنَّ مَن أطاعه فقد أطاع الله، ومَن عصاه فقد عصى الله، لأن الله تعالى هو الذي فرض علينا طاعته، وأوجبها، كما قال سبحانه في محكم تنزيله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾[٢].

وهذا ما يشير إليه الشيخ السندي بعبارته الوجيزة حيث يقول: ( لَمَّا كانتْ طاعةُ رسولِ الله ﷺ طاعةً لله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾[٣] فإنه لا يُطلَق عليه إذا أُطيعَ اسمُ الطَّاغوت )[٤].

وذلك لأن طاعته –عليه أتم الصلاة وأفضل التسليم- هي عينُ طاعة الله جلَّ جَلاله؛ إذ هو الآمِر بطاعته، ومَن كانتْ طاعتُه واجبِةً، وطاعتُه في طاعةِ الله لا يكون طاغُوتاً.

---

(١) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٤٣).

(٢) سورة الحشر: (٧).

(٣) سورة النساء: (٨٠).

(٤) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٤٤).

### ٢/ الأصـــــنام:

الأصنام جمعُ صَنَم، وهو كل ما عُبد من دون الله، أوكل ما يُشغِل عن الله.

يقول الشيخ رحمه الله عن معنى الأصنام: ( الأصنامُ جمعُ صَنَم، يقول العَلّامة الراغب الأصفهاني في «المُفرَدات»: "قال بعض الحكماء: كلُّ ما عُبِد مِن دون الله، بل كل ما يُشغِل عن الله تعالى يقال له: صَنَم؛

وعلى هذا الوجه قال إبراهيمُ صلواتُ الله عليه: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾[١] فمعلومٌ أنَّ إبراهيم مع تحقُّقِه بمعرفة الله تعالى واطِّلاعه على حِكمته لم يَكُن ممن يَخاف أن يَعود إلى عبادةِ تلك الجُثَث التي كانوا يَعبدونها، فكأنه قال: اجنبني عن الاشتغال بما يَصرِفني عنك"[٢] .. ).

ثم قال توضيحاً للمعنى الذي ذكره عن الراغب الأصفهاني للصَّنَم: ( يعني: أنَّ الصَّنم هو كل شيء عُبد من دون الله تعالى، أو ما يَصرِفُك عن عبادة الله؛ ولذلك دعا سيِّدُنا إبراهيم عليه السلام بقوله: ربِّ اجنب أولادي عن عبادة الأصنام؛ لأنَّ إبراهيمَ عليه السلام لم يكن يخاف من عبادة هذه الأشياء –جُثَث الأصنام– التي رفع راية الإنكار عليها، بل كان مقصده مِن هذا الدُّعاء أنْ جنِّبْنا من تلك الأشياء التي تَصرِفُنا عن التوجُّه والرّغبة إليك، أو تكونُ سبباً في بُعدنا عنْكَ.

وفي «تاج العروس» و«النهاية» أنَّ الصَّنم: "هو ما اتُّخِذ إلهاً مِنْ دون الله تعالى"[٣] أيْ: أنَّ الصَّنم هو: كلُّ ما اتُّخذ من دون الله تعالى إلهاً فعُبِد ... )[٤].

وعلى هذا الذي ذكره الشيخ فإن الصنم يكون على معنيين:

---

(١) سورة إبراهيم: (٣٥).

(٢) المفردات: للراغب الأصفهاني: (٣٧٦/٢).

(٣) انظر: تاج العروس: (٥٢٥/٣٢) ؛ والنهاية في غريب الحديث: لابن الأثير: (٥٦/٣).

(٤) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٤٤-٤٥).

١. كلُّ ما اتخذ إلهاً من دون الله فعُبِد.

٢. كل شيئ يصرف العبد عن طاعة الله تعالى، ويشغله عن عبادته.

### ٣/ الأوثان:

الأوثانُ جمعُ وَثَن، ولا يرى الشيخ السندي رحمه الله تعالى بَيْنَها وبيْنَ معنى الأصنام كبيرَ فَرق، بل بيَّنَ الشيخ أنَّ معنى الوَثَن هو معنى الصَّنَم، وليس بَيْنهما فَرْق.

يقول الشيخ: ( الأوثانُ جمعُ وَثَن، والمرادُ به هو ما ذُكِر فيما سَبَق، ففي «الصِّحَاح» للجَوهري: "الوثن: الصَّنَم"[١] يعني أنَّ الوَثَنَ هو الصَّنَم ... )[٢].

وعلى هذا فالوثن والصنم عنده مترادفان، لا فرق بينهما، وهو ما يُتخَذ إلها من دون الله يُعبد.

**تنبـــيه:**

الوَثن والصَّنم يُطلَقان على الجمادات وعلى ذوي الأرواح سواء بسواء، وليسا مختَصَّان بما لا رُوحَ له، يقول الشيخ رحمه الله تعالى منبِّهاً على هذا الأمر المهِم: ( يقال لِما يعبده المشركون من التماثيل الحجرية أوالخشبية صَنَماً ووَثَناً؛ لأنهم يعبدونها من دون الله تعالى، وكل شيء يُعبد سوى الله تعالى فهو صنم ووثن، سواء كان ذا روح، كالانسان، أوالحيوان وغيرهما، أو كان غير ذي روح، كالتصاوير، أو التماثيل من الحجر أو الخشب، وكذلك القِباب والقبور، والرايات، والتعزيات[٣]، والتابوت، والحجر،

---

(١) الصحاح: للجوهري: (٢٢١٢/٦).

(٢) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٤٥)

(٣) التعزيات: بينها الشيخ السندي بأنه شيء يصنعونه بالأوراق، ثم يعظّمونه!. انظر: توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: (ص٢٩٠).

والماء، والنار، والشمس، والقمر، والنجوم، وغير ذلك، من الأشياء، ما عُبد من دون الله عز وجل فهو وثن، وصنم، وطاغوت )[1].

وهذا الأمر نبَّهَ عليه الشيخ السِّندي في هذا المقام ردًّا على شُبهة الذي يعبدون الأولياء والصالحين بتعظيمهم تعظيماً لا يليق إلا بالله تعالى، والغلو في ذواهم، أو وصفهم بأوصافٍ اختص الله سبحانه وتعالى بها، ويقولون: إنَّ النصوص التي جاءت بالنهي عن مثل ذلك إنما هي في الأوثان والأصنام المنحوتة، والتماثيل الحديدية أوالنحاسية وما شابه ذلك، وليست بخصوص من نتقرب بهم إلى الله بالنُّذور لهم أو الذبح لهم وغير ذلك.

فأجاب الشيخ عن هذه الشبهة التي طالما درجت على ألسِنة العَوام، ورَدَّ على هذا الزعم، وبيّنَ أنَّ الوَثن والصَّنم كما يُطلق كل واحدٍ منهما على التماثيل والجمادات، فكذلك يطلق كلٌّ منهما على ذوي الأرواح من الأولياء والصالحين وأمثالهم.

وبهذا تلخَّصَ أنَّ كلَّ شيء يُعبد سوى الله ربِّ العالمين سواء كان المعبود ذا روح، أم كان من الجمادات، فإنه يُطلق عليه اسم الوثن والصنم وكذلك الطاغوت؛ لأنه قد طغى وجاوز قَدْره وحَدَّه حتى عُبد، كما سبق بيان ذلك.

- **جامعُ القول في التحذير مما يُعبد من دون الله من ذلك:**

بعد أن تبين لنا من كلام الشيخ السندي يرحمه الله معنى الطاغوت والوثن والصنم، وأنها أشياء تُعبَد من دون الله عز وجل، سواء كانت ذوات أرواح، أم كانت من أنواع الجمادات، وَكذلك بعدَ أنْ وَقَفْنا على الأدلة التي استدل بها الشيخ على بُطلانها من الكتاب والسنة، أختم هذا المبحث بقول جامع له في التحذير عنها، ونصحه للمنتسبين إلى الإسلام ممن وقعوا في شيء من ذلك:

---

(١) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٤٥).

فيقول رحمه الله: ( إذا صار العبدُ عاصياً لله تعالى سلب الله عقله وحواسَّه، كما قال تعالى: ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾[2] أيْ فلا يميِّزون بَيْن ما فيه نفعهم وما فيه ضررهم، وهل هم على صراط مستقيم، أم هم في ضلال مبين.

ومِن عَجَب أمرِهم أنهم يجعلون التصاوير والتماثيل والأوثان بأيديهم، ثم يعمدون إلى عبادتهم، وكذلك هم الذين يعمرون قبور الأولياء، وينصبون النُّصُب، ويَرفعون القِباب على القبور، وبأيديهم يزرعون الأشجار ويسقونها ويحافظون عليها، ثم تجدهم يقفون أمامها خاشِعين خاضعين، ويسجدون لها ويركعون!! وهذا في الحقيقة مِن فعل الهندوس، وقدْ تَلَبَّسَ به مَن انتسب للإسلام بالإسم.

وهم كذلك يحتفظون بصور أولياءهم في البيوت، ثم يُلبِسونها قلائدَ من الأزهار، ثم يربطون قطعة من القماش في أعناقهم، ويقومون أمامها قيامَ خاضعٍ ذليل، ويبذلون لها من قيامهم وركوعهم وسجودهم!!. وكذلك من فِعلتهم أنهم يأخذون من أوراق الشجر، فيعلقونها في أعناق أولادهم، أو يوزعون نَذْراً للأولياء أنواعاً من الحَلَى!!.

وهذه الأشياء في حقيقة الحال مخلوقة خلقها الله تعالى لننتفع بها؛ كما قال الرب تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[3] فشيء خلقه الله تعالى لنفعنا ينبغي لنا أنْ نَنتفع به، لا أنْ نجعلَه معبوداً لَنا، إذْ أيُّ سفاهة أعظم من ذلك؟!.. )[4].

فتبين من ذلكم القول أنه لا يجوز لنا أن نعبد شيئاً غير الله تعالى، مهما كان ذلك الشيء، حياً كان أم ميتاً، لأن كل شيء سوى الله مخلوق، لا تليق به العبادة، وإنما هي للخالق الذي خلق لنا ما في الأرض جميعاً، لا شريك له أحدٌ من خلقه، وعبادة شيء سوى الله الخالق لَمِن سَفاهة العقول، بل هي عبادة للصنم والوثن والطاغوت.

---

(١) سورة إبراهيم: (٢٧).

(٢) سورة الحشر: (١٩).

(٣) سورة االبقرة: (٢٩).

(٤) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٢٨٣-٢٨٤).

# المبحث السابع

# الْغَايةُ مِنْ خَلْقِ الثَّقَلَيْنِ هِيَ تَوْحِيدُ اللّٰه فِي عِبَادَتِه

لّما كان الله سبحانه وتعالى غنياً عن خلقه، غير محتاج إليهم بيَّن أنَّ الغاية من خلقه لِلثَّقَلَين: الجِنّ والإنْسِ إنما هي لِيأمرهم بعبادته، ويخلصوها له سبحانه دون غيره، وليس لحاجة إلى أحد منهما، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[1].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ( أي: إنَّما خلقتُهم لآمُرَهم بعبادتي، لا لاحْتياجي إليهم )[2].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ( أي: إلا لِيُقرّوا بعبادتي طوعاً، أو كُرْهاً )[3].

وتبيّن من قول ابن عباس هذا أنه لايضر اللّه تعالى إعراضُ مُعرِضٍ عن عبادته من الإنْسِ والجِنّ، فإنه تعالى غنيٌّ عنهم وعن عبادتهم، وليس لهم مع إعراضهم عن العبادة أن يخرجوا من عبودية الله تعالى العامة ولو كُرهاً، فإنه فرضها على كل أحدٍ منهم وكتبَها، كما قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾[4]؛ لأنه سبحانه له الربوبية لكل شيء، ولا يسعهم الخروج عنه، كما قال: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾[5]، وقال:

---

(١) سورة الذاريات: (٥٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم: لابن كثير: (٧/٤٢٥).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) سورة مريم: (٩٣).

(٥) سورة التوبة: (١٢٩).

﴿ يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ ﴾[1].

وكذلك وردت أقوال أخرى لأهل السنة المعاصرين في تقرير هذه الغايةِ العُظمى، منها قولُ الإمام عبد الرحمن السعدي رحمه الله حيث قال: ( هذه الغاية، التي خلق الله الجنَّ والإنس لها، وبعَثَ جميعَ الرُّسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سِواه، وذلك يتضمن معرفةَ الله تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرِفة بالله، بل كُلَّما ازدادَ العبدُ معرفةً لِربه، كانت عبادتُه أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلَّفين لأجلِه، فما خلقهم لحاجة منه إليهم )[2].

إلى غير ذلك من أقوالهم سلَفاً وخلفاً، والتي يتضح من خلالها أنَّ الله تعالى خَلَقنا وسخَّرَ لنا الكون وهيَّأَه مِن أجْل غايةٍ واحدة، وهي أنْ نعبدَه وحده ونُخلِص له العبادة، ولا نشرِك معه أحداً من خلقه.

فإنَّ الغايَةَ العُظمى والمقصدَ الأسمى والهدفَ الأسنى مِن خلق الانسان والجان هو توحيد الله تعالى في عبادته، والإخلاص له في الدِّين، ولم تكن الغاية من خلق الله تعالى للثَّقَلين إنساً وجنًّا ولا لغيرهما من الخلائق لحاجة به إليهم، فإنه هو الغني الحميد، وهم الفقراء إليه، وتبين أيضاً مما سبق أن من أنواع أدلة وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة مجيء النصوص ببيان الغاية من خلق الإنس والجن، فإن توحيد الألوهية تنوعت أدلته ودلالاتها، ومن تلك الأدلة أو الدلالات نصوصٌ دَلَّت على الغاية التي خُلقوا من أجلها.

---

(١) سورة الرحمن: (٣٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن: للسعدي: (ص٨١٣).

- **تقرير الشيخ بديع الدين السندي لعقيدة أهل السنة فيما يتعلق بهذا المبحث:**

لا يكاد يخلو مجلس من مجالس الشيخ ولا دَرْس من دروسه ولا مصنَّفٌ مِن مصنفاته الكثيرة من ذكر توحيد الله عز وجل في العبادة، وذلك لِما كان يقرِّرُه دائماً من أنه هو الغايةُ العُظمى مِن خَلْق الثَّقلَين، وأنه من أجله خَلق الله تعالى الإنسَ والجِن، لِيعبدوه وحده، ولا يشركوا معه في عبادته أحداً من خلقه.

يقول الشيخ رحمه الله في بيان ذلك: ( الأشياءُ كلُّها سِوى الله تعالى معدودة في عِبادِه، وله عابدة، ولاسيما الإنس والجن خلقهما الله تعالى لأجل عبادته، والآية: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[1] شاهدة على ذلك )[2].

فقد وضح الشيخ في هذه الجملة على أنَّ الغاية من خلق الثقلين إنما هي توحيد الله وإفراده بالعبادة، كما أشار فيها أيضاً إلى أن العبودية نوعان:

١. عبودية كونية عامة. ٢. وعبودية شرعية خاصة.

أمَّا العُبودِية الكونية فلِكون الثَّقلين مِن عامَّة عباده، كقوله تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾[3] وهي عبودية تعم جميع العباد.

وأما العبودية الشرعية فهي العبودية الخاصة لخواص عباده، كمَثَلِ الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة الذاريات: (٥٦).

(٢) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٤٣).

(٣) سورة مريم: (٩٣).

(٤) سورة الفرقان: (٦٣).

والعبودية العامة فإنها حاصلة لا محالة، ولكن الغايةَ المرادةَ شرعاً من الخلق هي العبودية الخاصة، وهي التي تضمنها قول الرب تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾(١)، وقيل أن المراد بالآية هو العبودية العامة؛ أي: إلا لعبادتنا، والتذلل لأمرنا، وهو قول ابن عباس ﷺ ، والمختار لدى ابن جرير الطبري رحمه الله.(٢)

وهذه الغاية الكريمة التي خلق الله تعالى من أجلها الثقلين قد كان أخذ عليها الميثاق من بني آدم وهم في أصلاب آبائهم، كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾(٣).

وهذا ما يبينه الشيخ رحمه الله حيث يقول: ( جمع الله تعالى أرواحَ البَشر كلِّهم مِن صُلْبِ آدمَ بعدَ خَلْقه، وأشْهدَهم على ربوبيته ووحدانيته ... ثم جعل الله يبعث أنبياءه لِيُذكِّروهم ميثاقهم مع الله، ونُصِحوا مرَّة بعد مرَّة أنّ ربَّكم هو اللهُ تعالى، فاعبدوه وحده، ولا تشركوا معه أحداً، فإنه الأمر الذي أعطَيتُم الميثاق به )(٤).

فعُلِم أنَّ الغرض من خلق البشر هو عبادة الله وحده، والاجتناب عن الشرك به تعالى، ولذلك أخذ الله تعالى من بني آدم الميثاق، وأشهدهم على أنه الرب وحده لا شريك له.

فتبيَّنَ مما سبق أن الغاية من خلق الثقلين الانسان والجان هي التي تتمثل في عبادة الله عز وجل، وأن القصد من خلقهم أن يخلصوا له جميعَ أنواع العبادة، وأن لا يشركوا معه في شيء من ذلك، وأنه ليس خلق الله لهم من أجل فقره أو احتياجه إليهم، تعالى الله

---

(١) سورة الذاريات: (٥٦).

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للطبري: (٥٥٥/٢١).

(٣) سورة الأعراف: (١٧٢).

(٤) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٨٥-٨٦).

الغنيُّ الواجدِ عن ذلك علواً كبيراً، وقد اتضحت من هذا المبحث أهمية توحيد العبادة، كما تبينت لنا من خلاله الغاية من الخلق، وفّقنا الله لِما خَلَقَنا له، إنه هو الموفِّق والهادي إلى سواءِ السَّبِيل.

# المبحث الثامن
# الاسْتِدْلَالُ بِالرُّبُوْبِيَّةِ عَلَى الأُلُوهِيَّة

لما كانت الغاية العظمى والهدف الأسمى من خلق الإنسان والجان، وإنشاء الأكوان هي توحيد الله تعالى في عبادته وألوهيته –كما تقدم في المبحث السابق– فإن الله تبارك وتعالى –وهو أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين– لم يترك خَلْقه سُدىً وهملاً دون دليل على الطريق إليه وعلى السبيل المؤدي إلى هذه الغاية العظيمة، فكان أنْ أرسلَ الله رُسُلَه، وأنزل كُتبه لِيتبين لهم هدف خلْقِهم وغاية جعلهم في الأرض خليفةً، وأنطق رسلَه وأنزل في كتبه بما يدلهم على ذلك ويعلمهم الطريق الموصلة لإنفاذ هذه الغاية.

ومن هذه الأدلة التي أرسل بها رُسلَه وأنزل بها كُتبه دليل ربوبيته تعالى لخلقه، فإن ربوبيته تعالى لمن أعظم الأدلة على وحدانيته في ألوهيته، وأنه تعالى هو المستحق للعبادة كلِّها دون غيره، وذلك لأن المشركين في الجاهلية، بل وعلى عهد رسول الله ﷺ بعد بعثته كانوا يقرون بأن الله تعالى وحده الخالق للكون وما فيه، وهو الرازق المالك المدبر، وأنه ليس في الكون شيء إلا تحت ربوبيته وقهره وقدرته وقبضته، وله الإحياء والإماتة، وبيده وحده النفع والضر، إلى غير ذلك من أفراد الربوبية، لكنهم كانوا يشركون معه سبحانه في الألوهية، فيجعلون بينهم وبينه وسائط، ويتقربون بهم إليه، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله.(١)

وسنعرف فيما يلي منهج القرآن في ذلك بالاختصار، أي في الاستدلال بربوبية الله جل في علاه على استحقاقه للعبادة، ثم أذكر منهج أهل السنة في تطبيقهم له في دعوتهم الناس إلى عبادة الله، وأثلِّثُ بذكر موقف الشيخ بديع الدِّين السندي رحمه الله وتقريره لعقيدة أهل السنة فيما يتعلق بذلك، والله هو حسبي ونعمَ الوكيل.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز الحنفي: (ص٨١).

**أولاً ــ منهج القرآن في ذلك:**

منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين بالله عز وجل إلى توحيده تعالى في عبادته هو الاستدلال بربوبيته سبحانه وعِظَم قدرته وغِناه عن الخلق على ألوهيته جل جلاله واستحقاقه وحدَه العبادة، وذلك المنهج الجليل يتجلى في عدد من آيِ القرآن المجيد، ومن أمثلة ذلك:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[1].

فأمر الله تعالى في هذه الآية عامة البشرية بتوحيد العبادة له دون الأوثان والأصنام والآلهة، وذكَّرهم بما هو معلومٌ لديهم مِن وَصْفِ ربوبيته تعالى أنه خَلَقهم ومَنْ قَبلهم، فالذي خلقهم وخلق آباءهم وأجدادهم وسائر الخلق غيرَهم، وهو يقدر على ضَرِّهم ونَفْعِهم، أولى بالطاعة والعبادة ممن لا يَقدِر على نَفْعٍ ولا ضَرّ.[2]

ومن أمثلته كذلك قول الله تعالى في سورة النمل: ﴿ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة: (٢١).

(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: (١/٣٨٤).

(٣) سورة النمل: (٥٩-٦٤).

فأقام الله تعالى على عباده المشركين حجته بأنْ ذكَّرهم بخلقه الخلائق، وإنزالِه الماء من السماء، وإنباتِه الأرض، وجَعْلِها قراراً، وتسخيرِ ما فيها لهم، وبما أمدَّهم به من النِّعَم، فقرَّر لهم توحيد الربوبية وجعل ذلك دليلاً على استحقاقه بالعبادة، ووحدانيته بالألوهة، وسيأتي من قول الإمام ابن أبي العِز رحمه الله ما يوضح ذلك.

وفي القرآن الكريم مقامات كثيرة من مثل هذا، حيث جعل الله تعالى فيها خالقيته ورازقيته وملكه وتدبيره وما إلى من أفعال ربوبيته دليلاً على تفرده بالعبادة، وأنه المعبود وحده لا شريك له في ذلك، فهذا النوع من الاحتجاج كثير في القرآن، وهو الاحتجاج على المشركين بما أقروا به من توحيد الربوبية، على ما أنكروه من توحيد الإلهية.

**ثانياً_ قول السلف في ذلك:**

أهل السنة والجماعة يلتزمون بمنهج القرآن ولا ينحادون عنه، ويسلكون مسلكه في عقائدهم ودعوتهم الناس، ولذلك كانوا أهل الوسطية والاعتدال.

ومن أمثلة التزامِهم بذلك وتمسُّكِهم به سيرُهم في دعوتهمُ العِبادَ إلى عبادةِ ربِّ العِباد على نهج القرآن، فقد سلكوا في ذلك مسلك القرآن الكريم، وانتهجوا بمنهجه القويم، وهو الاستدلال على استحقاقه تعالى وحدَه العبادةَ والألوهيةَ بمقام ربوبيته، ووحدانيته بالخلق والرَّزْق والملك والتدبير، ولهم في تقرير ذلك وتطبيقه عديدٌ من الأقوال، أُوردِ شيئاً منها فيما يلي على نحو المثال:

يقول الإمام الطَّبري رحمه الله في تفسيره: ( وأما معنى قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[1] فإنه خبرٌ مِن الله عز وجل، أخبرَ عبادَه أنَّ الألوهة خاصة به دون ما سواه من الآلهة والأنداد، وأنَّ العبادةَ لا تصلُحُ ولا تجوز إلا لَه، لانفرادِه بالربوبية، وتَوَحُّدِه بالأُلُوهِيَّة، وأنَّ كل ما دونه فمِلْكه، وأن كل ما سِواه فخَلْقه، لا شريك له في سُلطانه ومِلْكه؛ احتجاجاً منه

(١) سور آل عمران: (٢).

تعالى ذِكْره عليهم، بأنَّ ذلك إذْ كان كذلك، فغير جائزةٍ لهم عبادةُ غيره، ولا إشراكُ أحدٍ معه في سلطانه، إذْ كان كلُّ معبودٍ سِواه فمِلْكه، وكل مُعَظَّمٍ غيرُه فخَلْقه )[1].

فالمتفرِّد بالربوبية يُوَحَّد بالألوهية، وتُخلَص له العبادة دون ما سواه، لعموم ملكه وسلطانه، وكون كل شيء من خلقه.

ويقول مُلا علي القاري[2] في شرحه لـــ،«الفقه الأكبر» المنسوب للإمام أبي حنيفة رحمهما الله تعالى: ( وقد أعرض الإمامُ عن بحث الوُجود اكتفاءً بما هو ظاهرٌ في مقام الشهود، ففي التتريل: ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[3]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[4] فوجود الحَقّ ثابت في فطرة الخلق، كما يشير إليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[5] ويوميء إليه حديث: ﴿كلُّ مَولُودٍ يُولَدُ على فِطْرَة الإسلام﴾[6].

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للطبري: (١٧٠/٥).

(٢) علي القاري هو: علي بن محمد سلطان، الهروي، المعروف بالقاري الحنفي، ولد بهراه، ورحل إلى مكة، وأخذ بها عن الأستاذ أبي الحسن البكري، والسيد زكريا الحسيني، وغيرهم؛ ألف التآليف الكثيرة منها: شرحه على المشكاة في مجلدات وهو أكبرها وأجلها، و«شرح الشفاء»؛ وكانت وفاته بمكة المكرمة في شوال عام أربع عشرة وألف. انظر: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: للمحبي: (١٨٥/٣-١٨٦).

(٣) سورة إبراهيم: (١٠).

(٤) سورة لقمان: (٢٥).

(٥) سورة الروم: (٣٠).

(٦) رواه البخاري في صحيحه: كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١٠٠/٢ برقم١٣٨٦) بلفظ ﴿كلُّ مَولُودٍ يُولَدُ على الفِطْرَة﴾.

وإنما جاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لبيان التوحيد، وتبيان التفريد، ولذا أطبقت كلمتُهم وأجمعت حُجتهم على كلمة: لا إله إلا الله؛ ولم يؤمروا بأن يأمروا أهل مِلَّتهم بأن يقولوا: الله موجود، بل قصدوا إظهار أنَّ غيرَه ليس بمعبود ردا لما توهَّموا وتخيَّلوا حيث قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[1] و: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[2] .. )[3].

وقال أيضاً رحمه الله في أول شرحه للكتاب: ( أقول: فابتداء كلامه سبحانه وتعالى في الفاتحة بـ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾[4] يشير إلى تقرير توحيد الربوبية، المترتب عليه توحيد الألوهية، المقتضي من الخلق تحقيقَ العبودية )[5].

ويقول الإمام ابن أبي العز رحمه الله في «شرح العقيدة الطحاوية»: ( ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية، ويُبيِّن أنه لا خالق إلا الله، وأنَّ ذلك مستلزمٌ أن لا يُعبد إلا الله، فيجعل الأوَّل دليلاً على الثاني، إذ كانوا يُسلِّمون في الأوَّل، وينازعون في الثاني، فيبيِّن لهم سبحانه أنكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله وحدَه، وأنه هو الذي يأتي العِبادَ بما ينفعهم، ويدفع عنهم ما يَضرُّهم، لا شريك له في ذلك، فَلِمَ تَعبدونَ غيره، وتجعلون معه آلهةً أخرى؟..

---

(١) سورة يونس: (١٨).

(٢) سور الزمر: (٣).

(٣) منح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر: لملا علي القاري: (ص٤٩-٥٠).

(٤) سورة الفاتحة: (٢).

(٥) منح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر: لملا علي القاري: (ص٤٧).

كقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[(١)] الآيات.

يقول الله تعالى في آخر كل آية : ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أيْ: أإله مع الله فعل هذا؟ وهذا استفهام إنكار يتضمن نفي ذلك، وهم كانوا مقرين بأنه لم يفعل ذلك غير الله، فاحتج عليهم بذلك )[(٢)].

فلا أحدَ يستحق العبادة غيره تعالى؛ لأنه هو الخالق الرازق المالك، الموجِد من العدم، والمُمِدُّ بالنِّعَم، دافع الكُرُبات، وكاشف الغَمِّ والهَمّ.

وقد تبين مما سبق أن الألوهية خاصة بالله تعالى دون ما سواه من الآلهة والأنداد الباطلة، وأن العبادة لا تصلح ولا تجوز إلا له؛ لأنه هو المنفرد بربوبية الخلق، فالرب الذي خلق الخلق وهو مالكهم ورازقهم، والذي يدبِّر الكون ويصرِّف فيه الأمور ربٌّ يستحق كمال الألوهية، وحرِيٌّ بأن يُفرد بالعبادة دون سواه.

هذا النهج هو المذكور في القرآن المجيد، وعليه قول أهل السنة والجماعة، وبقي أن نطلع على ما قرره الشيخ بديع الدين السندي رحمه الله عن ذلك، وهو ما سيكون بحثي فيه في الأسطر القادمة، والله تعالى وحده هو المستعان.

---

(١) سورة النمل: (٥٩-٦٠).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز: (ص٨٥).

- **تقرير الشيخ بديع الدين السندي لعقيدة أهل السنة فيما يتعلق بهذا المبحث:**

توحيد الألوهية أساسُ جميعِ الأديان السماوية، من أجله أرسلت الرسل، وأنزلت عليهم الكتب، وإليه دعوة كُلِّ رسول مِن أوَّلهم إلى آخرهم، بل هو الغاية العُظمى والهدف الأسمى من خلق الجن والإنس كما سبق تقريره.

ولذلك رأينا أنّ سلف هذه الأمة وأئمتها رحمهم الله تعالى اهتموا بهذا النوع من التوحيد غاية الاهتمام، وأعطوه الأولوية في المقام، ومن هؤلاء الأئمة الأعلام الذين كان لهم في ذلك عظيمُ جهد وإسهام: الشيخ أبو محمد بديع الدين السندي رحمه الله، وسوف يتضح من خلال ما سيأتي أنه كان يحرص دائما في كلامه وفي خُطبه على بيان هذا الجانب، وهو جانب الألوهية مستدلاً عليها بالربوبية.

وذلك لدَرْكه أن الأنبياءَ والرُّسل، وورثتهم الأعلامَ مِن العلماء اهتمامُهم الأعظم في جناب توحيد الألوهية، وأنَّ جُلَّ كلامهم مع المشركين في باب الربوبية إنما هو في استدلالهم بها على الألوهية، لأنَّ المشركين كانوا قد أَقَرُّوا بها واعترفوا، لكنهم كانوا يشركون مع الله تعالى في العبادة.

وقد وضَّح الشيخ السندي رحمه الله هذا المرام، فقال وهو يُبيِّن حالَ المشركين في بلد مكةَ زمنَ رسول الله ﷺ في سياق رده على المشركين الذين ينتسبون للإسلام من أهل عصره وهم يجعلون بينهم وبينه تعالى من الوسائط والشُّفعاء في دعائهم وعبادتهم، قال: ( بل إن مشركي مكة كان شركهم من هذا النوع؛ لأنهم لم يكونوا يعتقدون فيمن كانوا يعبدونهم من المعبودين أنَّ أحداً منهم هو الخالق، أوالمالك، أو الرازق، أو أنه محيي ومميت، أو أنه النافع والضار، وما شابه ذلك؛

فقد ذُكِرتْ عقائدُهم في القرآن الحكيم، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾[1].

---

(١) سورة لقمان: (٢٥).

وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ إلى أنْ قال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾(١).

وقال: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾(٢).

وقال: ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾(٣).

وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾(٤).

وقال: ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾(٥).

فلو كانوا يعتقدون ذلك في أحد لَسمَّوْهُ، ولكنهم إنما كانوا يعتقدون ذلك في الله الواحد؛ أنه هو الخالق المالك الرازق، المحيي والمميت، الذي يملك السمع والبصر، مُدبِّر الكون، مجير الخلائق.

ولم يكونوا يعتقدون في أحدٍ سواه أنَّ بيده الإجارةُ أو كشفُ الضُّرّ، أو النفع والضُّرّ، أو الشفاء أو الرِّزْق؛ وهذا عين التوحيد، إلا أنَّ شِركهم أنهم كانوا يجعلون بينهم

---

(١) سورة العنكبوت: (٦١-٦٣).

(٢) سورة يونس: (٣١).

(٣) سورة المؤمنون: (٨٤-٨٩).

(٤) سورة الزخرف: (٨٧).

(٥) سورة الزمر: (٣٨).

وبين الله تعالى وسائط ووسائل، وأنه لا كشف لضُرِّنا إلا بهم، كما جاء في القرآن حكايةً عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣﴾[1] ...

إلى أنْ قال: وفي «شرح العقيدة الطحاوية»: "ولم يكونوا يعتقدون في الأصنام أنها مشاركة لله في خَلْق العالَم، بل كان حالهم فيها كحال أمثالهم من مشركي الأمم، من الهند، والتُّرْك، والبَربر وغيرهم، تارةً يعتقدون أن هذه تماثيل قوم صالحين، من الأنبياء والصالحين، ويتخذونهم شفعاء ويتوسّلون بهم إلى الله، وهذا كان أصل شرك العرب ... الخ"[2] .. )[3].

قلتُ: ولهذا السبب اهتمَّ الشيخ بتقرير مسائل توحيد الألوهية، وأعطاه الأولوية في تقريراته على مسائل توحيد الربوبية، كما يتضح هذا بالنظر إلى عامة مصنَّفاته، وكذلك ما ذكره من المسائل في باب توحيد الربوبية فإن كثيراً منها ساقها من أجل تقرير توحيد الألوهية والاستدلال بها على فردانية الله تعالى في استحقاق جميع أنواع العبادة وأفرادها.

وقد وردت عدة أقوال تطبيقية للشيخ في مواضع عديدة كلها تدلّ على استدلاله بربوبية الله عز وجل على ألوهيته، وأنه هو المعبود بحق، وسأذكر من ذلك بعض الأمثلة، فمن ذلكم:

- قوله رحمه الله في شرح قول الله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣﴾[4].

---

(١) سور الزمر: (٣).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز الحنفي: (ص٨١).

(٣) خالص توحيد (التوحيد الخالص) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٢١٠ مخطوط).

(٤) سورة غافر: (٤١-٤٣).

قال: ( هذه قصة عبدٍ مِن عباد الله تعالى، الذي قام بحماية التوحيد في مجلسِ فرعونَ الظالم، وأخبر قومَه بأنكم في حقيقة الأمر بدعوتكم إيّايَ إلى الشِّرك تدعونني إلى نارِ جَهنَّم، وأنا بدعوتي إيّاكم إلى التَّوحيد أُريكم سبيلَ النَّجاة؛ الذي تدعونني إلى عبادته لا دليلَ على كونه معبوداً، والله تعالى الذي أدعوكم إلى عبادته وحدَه توجَد أدلةٌ غيرُ محصية على كونه معبوداً؛ منها أنه العزيز، الغالب على كل شيء، القويُّ على كلِّ أحد، مُذِلُّ الطُّغاة، وأنه الغَفَّار الذي يعفو ويغفِرُ في كلِّ وقت، لمن يتوب إليه في كل حين، فلِمَ لا تُقبل عبوديته، ويُعبَد وحده، ولا تُرفع يد السؤال إلا إليه!!.

وله دعوة الحق؛ لأنه هو ربُّ كل أحد، وهو السميع، وقاضي الحاجات، وأما الذين تُجبرونني على دعائهم واللجوء إلى معابدهم، فإنهم في أنفسهم عاجزون، ومِن الله طالِبون، لا يستطيعون إعطاء شيءٍ ولا نَزْعَه، ليس لهم حقٌّ بأن يُدعَوا وينادَوا في الدنيا ولا في الآخرة، بل ذاك إسرافٌ وتجاوزٌ عن الحَدّ، لأنه لا أحدَ تُمدّ إليه الأيدي أو يُنادَى في الكُرُبات مِن دون مَن هو ربُّ العالمين وأحكمُ الحاكِمين، وأرحَمُ الرّاحمين، وخيرُ الفاتحين، وخيرُ الغافرين، وخيرُ الفاصلين، وخيرُ الرازقين، عزيزٌ كريم، رؤوفٌ رحيم، عَلِيٌّ عظيم، سميعٌ بصير، قريبٌ(١) مجيب؟!..

إنه لَعُدوان عظيم وتجاوز عن الحد، وإسراف في الأمر، وأهل غلوٍّ كهذا هم أصحاب النار والجهنَّمِيون ) انتهى(٢).

وقد تبينت من كلمة الشيخ السابقة عدة أمور، منها:

١- إثباته أنَّ الله تعالى هو المعبود الحق، وأنه توجد على ألوهيته تعالى أدلة غير محصية.

---

(١) في الكتاب بدل ''قريب'': ''كريم''ولعله خطأ مطبعي، وأن الصواب هو ما أثبتُّه؛ بدليل أن وصف "كريم" قد سبق قبله بقليل، ولمناسبة القُرب بالإجابة.

(٢) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٧٣-٧٤).

٢- من الأدلة على ألوهية الله تعالى وأنه ينبغي أن يُعبد وحدَه: كونُه سبحانه العزيز، الغالب القوي، وأنه يُذِلّ مَن طغى وجاوز حدّه؛ فإن هذا من ربوبية الله جلّ شأنه وعَزّ مقامه، وهو استدلال من الشيخ بربوبية الله على ألوهيته، بدليل قوله بعد أنْ ذكر عِزّةَ الله تعالى وغلبتَه وقوّته: ( فلِمَ لا تُقبل عبوديته، ويُعبَد وحده، ولا تُرفع يد السؤال إلا إليه!!.. ).

٣- ومن أوجه استدلال الشيخ بالربوبية على الألوهية في هذا الكلمة بيانه أن الله عزّ وجَلّ هو ربُّ كل شيء، ومن ربوبيته أنه يَسمع الدُّعاء ويقضي الحاجة عند دعوة الداعي له؛ كما في الجملة السابقة من قوله: ( وله دعوة الحق؛ لأنه هو رب كل أحد، وهو السميع، وقاضي الحاجات ) أيْ: أن الله سبحانه هو الذي يستحِقُّ أنْ يُدعى دعاءَ العبادة ودعاءَ المسألة، لأنَّه هو السميع وقاضي الحاجات، وهو ربُّ كلِّ شيء.

٤- وكذلك من استدلال الشيخ على ألوهية الله سبحانه بربوبيته في هذه العبارة أن بيّن بأنّ من يُدعى ويُعبَد من دون الله عاجزٌ غيرُ قادر، محتاج إلى الله تعالى، فلا يستحق أن يُدعى من دون الله أو أن يُعبد، والله هو الغني القادِر، فله العبادة الحقة، وفي هذا قول الشيخ: ( وأما الذين تُجبرونني على دعائهم واللجوء إلى معابدهم، فإنهم في أنفسهم عاجزون، ومن الله طالِبون، لا يستطيعون إعطاء شيء ولا نَزْعه... الخ ) فالعجز دليل على عدم كونه معبوداً، والله هو الغني القدير، وهو الذي يستحق العبادة لكمال غِناه وقُدرته، وأخرى من أوصافه التي هي من أوصاف ربوبيته.

وكذلك للشيخ جمعٌ من أقواله الأخرى استدل فيها بربوبية الله تعالى على ألوهيته وإخلاص العبادة له وحدَه، منها:

- قوله رحمه الله: ( ... كيف يرضى الله تعالى لمخلوقه الذي أوجده من العَدْم، وأعطاه البهجة والقُوّة والطّاقة، ووهبه العقل والرشد، ورَزَقه، بأن وهَب له أسباب الرِّزق، أن

يصير عابداً لغيره، وذاكراً لِسِواه؟!.. كلا.. )[1] أيْ: أن الله سبحانه وتعالى لن يرضى لمخلوقه الذي خَلَقه من العدم، ورَزَقه وأمدَّه بالنِّعَم أنْ يعبدوا سواه أحداً من خلقه، لأنَّ الذي خلَق الخلقَ هو المستحق لأن يُعبد وحده دون ما سواه، وهو الله تعالى وحده لا شريك له.

- وقوله كذلك في موضعٍ آخَر: ( جمع الله تعالى أرواح البشر كلهم من صُلب آدم بعد أنْ خلقه، فأشْهدَهم على ربوبيته ووحدانيته ... ثم جعل الله يبعث أنبياءه لِيُذكِّروهم ميثاقهم مع الله، ونُصِحوا مرة بعد مرة أن ربَّكم هو الله تعالى، فاعبدوه وحده، ولا تشركوا معه أحداً، فإنه الأمر الذي أعطَيتُم الميثاق به )[2].

حيث تبين أن الله جلّ شأنه أخذ الميثاق من بني آدم وأشهدهم على ربوبيته، ثم أَمَرَهم الأنبياءُ بأن يعبدوه تعالى ويجانبوا الشرك، مع تذكيرهم بِعَهْدهم أنَّ الله هو الرَّب وحدَه.

وهذا يعني أنَّ الأنبياء نصحوهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له مذكِّرين إياهم بميثاقهم معه بأنه ربهم؛ وهذا استدلال منهم بربوبيته تعالى واحتجاجُهم عليهم بألوهيته.

إلى غير ذلكم من أقواله التي وردت في استدلالاته بربوبية الرب تبارك وتعالى على ألوهيته ووحدانيته في عبادته، والذي هو منهج القرآن مع الكفار في دعوتهم إلى التوحيد، وعليه سلك علماء أهل السنة من السلف والخلف، كما تقدم من تقريرهم في ذلك، وهذا الذي سلكوه هو منهج الشيخ السندي رحمه الله في دعوته إلى التوحيد وتبيانه التفريد لله الغنيِّ الحميد.

---

(١) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٨٣).

(٢) المصدر نفسه: (ص٨٥-٨٦).

# المبحث التاسع
# اللّٰهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أنْوَاعَ الْعِبَادَةِ كُلّهَا

تقدم فيما سبق في مبحَث تعريف العبادة أنها اسمٌ جامعٌ لكلِّ عمل يقوم به العَبد خالصاً لله تعالى وفق ما أمرَ به، وعلى ما عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنها: ( اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والاعمال، الباطنة والظاهرة )[1].

والله تعالى يستحق من هذه العبادة جميع أنواعها من غير استثناء، من العبادات القلبية واللسانية، والبدنية والمالية، فكل عمل يقوم به العبد تعبُّداً لا يكون إلا لله تعالى استحقاقاً، ولا يجوز صَرْفه لغيره كائناً ما كان، لأنه سبحانه هو المعبود الحق، وما يعبدون من دونه هو الباطل، وأن الله هو العلي الكبير.

يقول الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى في كلامه عن العبادة: ( ومدارها على خمس عشرة قاعدة مَن كمَّلها كمَّل مراتبَ العُبودية؛ وبيان ذلك: أنَّ العِبادة منقسمةٌ على القلب، واللسان، والجوارح، والأحكامُ التي للعبودية خمسةٌ: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح، وهن لكل واحد من القَلب، واللسان، والجوارح ).

فالعبادات بجميع هذه الأنواع –القلبية، والقولية، والعملية التي تؤدى بالجوارح– كلها لله الواحد الأحد، وهو الذي يستحقها دون غيره، والعِباد يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى.

فأما العبادة القلبية فهي قول القلب وعمله؛ وقوله: هو الاعتقاد، كاعتقاد ما لله من الأسماء والصفات، وعمله: كالمحبة، والخوف، والرَّجاء.

وأما العبادة القولية اللسانية فهي التي تجري على اللسان؛ كالشهادتين، والذكر.

---

(١) العبودية: لابن تيمية: (ص١٩).

وأما العملية التي تؤدى بالجوارح غير اللسان فأمثلته كثيرة؛ منها الصلاة، والجهاد، والحج، ونحو ذلك.

فكل نوع من هذه العبادات مع ما يندرج تحته من الأمثلة والأحكام كل ذلك لله تعالى وحده دون أن يكون له في شيء منها شريك.

يقول الإمام المقريزي رحمه الله في «تجريد التوحيد المفيد»: ( واعْلَمْ أنَّ العبادة أربعُ قواعد: وهي التحقُّق بما يحبّ الله ورسوله ويرضاه، وقيام ذلك بالقَلْب والِّلسان والجَوارِح، فالعبوديّة اسم جامع لهذه المراتِب الأرْبع، فأصحاب العبادة حقًّا هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله تعالى عن نفسه، وأخبر رسوله عن ربّه من أسمائه وصفاته وأفعاله، وملائكته ولقائه، وما أشبه ذلك.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدّعاء إليه، والذبُّ عنه، وتبيين بطلان البِدَع المخالفة له، والقيام بذكره تعالى، وتبليغ أمره.

وعمل القلب: كالمحبّة له، والتّوكّل عليه، والإنابة، والخوف، والرجاء، والإخلاص، والصّبر على أوامره ونواهيه، وإقراره، والرّضا به، وله، وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والإخْباتُ إليه، والطّمأنينة به، ونحو ذلك من أعمال القلوب التي فَرْضُها آكَدُ مِن فرض أعمال الجوارح، ومستحبُّها إلى الله تعالى أحَبُّ من مستَحبٍّ أعمال الجوارح.

وأمَّا أعمالُ الجوارح: فكالصلاة، والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجُمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك.

فقول العبد في صلاته: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ التزام أحكام هذه الأربعة وإقرار بها، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[1] طلب الإعانة عليها والتوفيق لها، وقوله:

---

(١) سورة الفاتحة: (٥).

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾[١] متضمّنٌ للأمرَين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السّالكين إلى الله )[٢].

فجميع ما يقوم بالقلب واللسان والجوارح من الأقوال أو الأعمال مع تحقق المحبة والرضا، والتعبد والتذلل والامتثال لا يجوز صرفه إلا للمعبود الحقيقي الذي لا معبود سواه، وهو الله تبارك وتعالى، وكمال ذلك كمال مرتبة العبودية، وهي الربانية التي تتطلع لها نفس العابد.

قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣ ﴾[٣].

فالله تبارك وتعالى هو المستحق جميع أنواع العبادات لأنه له وحده كمال الربوبية، ودعاء غير الله، والنحر والذبح له، والنذر له، والاستعانة والاستغاثة والاستعاذة به، والالتجاء إليه، والطواف له، والسجود والركوع له، والخوف منه، ورجاءه ومحبته كمحبة الله، وغيرها من أنواع العبادة مِن صرف خالص حق الله تعالى لغيره.

---

(١) سورة الفاتحة: (٦).

(٢) تجريد التوحيد المفيد: للمقريزي: (ص١٠٣-١٠٤)

(٣) سورة الأنعام: (١٦٢-١٦٣).

- **تقرير الشيخ بديع الدين السندي لعقيدة أهل السنة فيما يتعلق بهذا المبحث:**

كما ذكر الشيخ رحمه الله أن ( الأشياء كلها سوى الله تعالى معدودة في عِباده، وهي له عابدة، ولاسيما الإنس والجن؛ فإن الله تعالى خلقهما لعبادته، والآية: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[1] شاهدة على ذلك )[2] فكذلك بيَّن أنَّ العبادات كلها استخلصها الله سبحانه وتعالى لنفسه، لا يرضى أن يُشرَك معه في نوع من أنواعها أحد من خلقه، فهي بجميع أنواعها حق محض لله تعالى، وحق الله مقدم على حق كل أحد، كما قال الشيخ رحمه الله: ( قبلَ كلِّ شيء حقُّ الله تعالى، وهو أن نعبده بالإخلاص، ولا نشرك معه أحداً )[3].

وسأذكر ها هُنا أقوال الشيخ المجملَة والمفصَّلة في بيان أن الله تعالى وحده هو الذي يستحق جميع أنواع العبادات، لا شريك له فيها.

**أولاً- ذكر الأقوال المجملة الجامعة في بيان استحقاق الله تعالى جميعَ أنواع العبادات، وتفرُّده بذلك:**

قرر الشيخ رحمه الله في أقواله العديدة أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يستحق أنواع العبادة كلها، سواء كانت تلك العبادة من العبادات القولية أو الفعلية أو القلبية، وكذلك كانت بَدنية أم مالية، فإن في إخلاصِها إخلاصُ الدين لله تعالى.

---

(١) سورة الذاريات: (٥٦).

(٢) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٤٣).

(٣) انظر: إسلام مين عورت كا مقام (مقام المرأة في الإسلام) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٢١).

يقول الشيخ رحمه الله: ( وإخلاص الدِّين له معناه: أنْ تؤدَّى جميع الأعمال أو العبادات –سواء كانت بَدَنيةً أمْ ماليةً– خالصةً لوجه الله تعالى وحده )[1].

فهذا يدل على أن العبادات بجميع أنواعها المذكورة لا يجوز صرفها لغير الله تعالى، ومن صَرَفها لغيره فقد أشرك مع الله تعالى و لم يخلص له الدين.

ويقول الشيخ في شرح معنى قول النبي ﷺ: ﴿مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِيْ وَيُمِيْتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، مُخْلِصًا بهَا وَجْهه ورُوحهُ، مُصَدِّقًا بهَا لِسَانهُ وَقَلْبه، إِلاَّ فَتقَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فتْقاً حَتَّى يَنْظُرَ الربُّ إِلَى قَائِلِهَا مِنْ أهلِ الدُّنيا، وَحُقَّ لِعَبْدٍ إذا نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يُعْطِيَهُ سُؤْلَهُ﴾[2].

قال الشيخ في معنى هذا الحديث أيْ: ( أن لا يَعبُد أحداً سواه، لا حياً ولا ميتاً، ولا خلقاً من مخلوقه؛ فهذه الفضيلة المذكورة إنما هي لحامل مثل هذه العقيدة )[3].

ويقول كذلك في موضع آخر بعد أن بيَّن أن الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه؛ قال: ( فصَرْف أيّ نوع من أنواع العبادة لمخلوق يكون ظُلماً لعدة وجوه:

١- الأول: أن العابد لغير الله يعطي حق الله تعالى لغيره، أي أنه لَمْ يَضعِ العبادةَ في محلها.

٢- الثاني: أنه بشركه غيرَ الله في عبادته قد قصّر في حق الله تعالى وأنقص؛ فهذا المخلوق الذي هو أمام الله تعالى ذليل وحقير وعاجز ومحتاج، إعطاءه حق العبادة ظلم؛ فكما أنَّ ترجيح رجُلٍ أدنى على شخص أعلى درجة –كترجيح الجاهل على العالِم، والفاسقِ على التقي، والضعيفِ على القوي، وشخصٍ من

---

(١) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٣٩).

(٢) سبق تخريجه في المبحث السادس من الفصل الأول من هذا الباب.

(٣) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٥٤).

الأمة على النبي- من الظلم وعدم العدل، فكذلك تشريك مخلوق فيما يخص الخالق لَمِنَ الظلم وعدمِ العدل.

٣- الثالث: وهو كذلك غلو في شأن المخلوق، بحيث يُرفع إلى مقام الخالق ويُشرَك معه في شأنه )[١].

فتبين أن صرف العبادة لغير الله تعالى بأيِّ نوع من أنواعها ظُلم عظيم، وذلك لأن فيه وضع العبادة في غير محلها، وتنقيص في شأن الله تعالى وحقه، وغلو في شأن المخلوق؛ وكل هذا من الظلم وعدم العَدل، فلا يجوز صرفها لغير الله جلّ شأنه.

فتبين من هذه الأقوال أن الشيخ رحمه الله يرى أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يستحق جميع أنواع العبادة، فلا يُعبد أحد غيره، لأن العبادة حق محض لله تعالى، وإعطاء هذا الحق لغير مستحقه شرك وظلم عظيم.

**ثانياً- ذكر الأقوال المفصَّلة في بيان استحقاق الله تعالى جميع أنواع العبادات، وتفرُّده بذلك:**

وبعد ذكر هذه الأقوال الإجمالية للشيخ في بيان استحقاق الله عز وجل جميعَ أنواع العبادات، القولية منها والفعلية والاعتقادية، نتطرق إلى شيء من أقواله في بعض أفراد توحيد العبادة بخصوصها، فقد كان كثير من أقوال الشيخ مفرّقة في بعض أفراد هذا التوحيد، كالدعاء، والسجود، والتبرك، والتوسل، والخوف، والخشية، والرجاء، والتوكل، والتوبة، والإنابة، والاستغفار، والنذر، والشكر؛ مع ما له من الأقوال في التحذير مما يضاد توحيد الله سبحانه وتعالى في عبادته، كالتطيُّر، واتخاذ القبور مساجد، والسحر، والكهانة والعرافة، ووضع التمائم، وغير ذلك.

---

(١) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٥٩).

وقد نقلت كثيراً منها في مواضعه من المباحث المعقودة بخصوص تلك الأنواع للعبادة، ولذا سأكتفي هاهنا بذكر الأمثلة من تقريراته وأقواله الواردة فيما يخص بغير تلكم المباحث، وذلك فيما يلي من تلك الأمثلة:

**١- الاستعانة:** وهو طلب العون والمؤازرة في الأمر.

وقد كان الشيخ السندي يستعين بالله تعالى ويوحِّده في استعانته، فلم يكن يستعين إلا به سبحانه، وقد جاءت جملة من أقواله فيها استعانته بالله تعالى، كقوله في مواضع من مصنفاته في كلماته الاستهلالية: ( الحمدلله نحمده، ونستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ... )[١] فالاستعانة من العبادات التي لا يُصرَف شيء منها لغير الله تعالى.

**٢- الاستقامة:** ويبيِّن الشيخ السندي معناها حيث يقول: ( ومعنى الاستقامة هو استقامة العَبد وقيامه على ما قد أقرَّ به من ربوبية الله تعالى ووحدانيته، فلا يلتفت إلى أحد سوى جنابه، يقيم على بابه ويديم في سرائه وضرائه، في مرضه وصحته، في ضيقه وانبساطه، وفي شأنه كله، يتبع أوامره، ويجتنب نواهيه )[٢].

وقد استدل الشيخ رحمه الله على كون الاستقامة من توحيد الله في عبادته بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[٣]،

---

(١) اسلام مين عورتون كا مقام: (مقام المرأة في الإسلام) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٧).

(٢) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: للبديع الدين السندي: (ص٣٨-٣٩).

(٣) سورة فصلت: (٣٠-٣٢).

وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١٣ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٤ ﴾[1].

وذلك لأنه قد أورد هذه الآيات الكريمات في فضل هذا التوحيد وأهميته.

**٣- ومن أنواع العبادة الاعتصام بالله تعالى:** وقد استدل الشيخ السندي على كونه من العبادات التي يجب الإخلاص فيها بقول الله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ١٤٦ ﴾[2].

ثم قال تعليقاً على هذه الآية الكريمة: ( معنى الاعتصام بالله تعالى هو التزام جنابه، والاحتراز عن باب غيره؛ لأن المقصود من الاعتصام هو مجانبة الشرك معه، كما جاء في الحديث القُدْسي: ﴿أَنَا أَغْنَىَ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ﴾[3] لذلك لا يبقى في حال وجود الشركِ عمل، فإنَّ الله تعالى غنيٌّ عنه، فمن أشرك بالله تعالى لم يعتصم به، وإخلاص الدِّين له هو: أن تؤدَّى جميعُ الأعمال أو العبادات –سواء كانتْ بدَنيةً أمْ ماليةً– خالصةً لِوجه الله تعالى وحْدَه )[4].

فالاعتصام بالله تعالى من أهم العبادات، بل هو أعظمها وأجلها؛ لأنه هو توحيد الله عز وجل في عبادته بالتزام بابه، ومجانبة الشرك معه بصرف النظر عن غيره وعدم اللجوء إليه.

---

(١) سورة الأحقاف: (١٣-١٤).

(٢) سورة النساء: (١٤٦).

(٣) تقدم تخريجه في المبحث الخامس من هذا الفصل.

(٤) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٣٩).

٤- **ومنها السجود والركوع والانحناء:** لما كانت العبادة في أصلها هي التذلل والخضوع كان السجود، والركوع، والانحناء تذللا من العبادة، والتي ينبغي أن لا تُصرَف إلا لله الواحد الأحد الذي له الألوهية التامة، يقول الشيخ السندي رحمه الله في بيان ذلك: ( ذاك من حق الله تعالى أن يخضع العباد في جنابه بأعناقهم ويخفضوا له رؤوسهم، وأن يضعوا في جنابه نواصِيَهُم على الأرض؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧)﴾[1] فثبت من هذه الآية أن السجود والركوع عبادة، والعبادة لا تصح لأحد سوى الله تعالى، لأن عباة غير الله شرك به سبحانه )[2].

فتبين أنَّ مِن العبادة التي لا يجوز أن يُتعبد بها غير الله تعالى السجودُ والركوع، لأن الله تعالى أمر بهما له وحده.

إلى غير ذلك من الأمثلة التي بينها الشيخ السندي أنها داخلة في أنواع العبادات التي لا يجوز أن يُشرك مع الله تعالى فيها أحد من خلقه، لأنها حق الله تعالى.

وخلاصة الكلام من هذا المبحث وسلاسة المرام: أن العبادات بجميع أنواعها وأفرادها، القلبية والقولية، وما تؤدى منها بالجوارح لا يُصرَف شيء منها لغير الله عز وجل، لأنه تعالى هو المستحق لها دون غيره، فهو المعبود الحق، وله العبادة الحقة، وأن ما يعبدون من دونه هو الباطل.

كما يتضح أيضاً من خلال هذا المبحث –وهو ثمرته– أنَّ العبادات ليست مجموعة من الشعائر التعبدية التي تؤدى في أوقاتها المحددة فحسْب، كالصلاة والصيام والحج، بل يتعدى مفهومها الشرعي إلى ما هو أوسع من ذلك، من العبادات القلبية والقولية والعملية، كما تقدم تفصيل ذلك فيما سبق، والله الموفق.

---

(١) سورة الحج: (٧٧).

(٢) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٢٠٠-٢٠١).

# المبحث العاشر
# الدُّعَــاء

قبل البَدْء في بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة فيما يخص الدعاء يجدر أن أعرِّفه أولاً، لأنَّ الحُكم على الشيء فرعٌ عن تصوُّره.

**فالدعاء لُغةً:** الطلب والابتهال؛ يقال: دعوت الله أدعوه دعاء: ابتهلت إليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير، ودعا الله: طلب منه الخير ورجاه منه، ودعا لِفُلان: طلب الخير له، ودعا على فلان: طلب الشر له[1].

**وأما الدعاء في الاصطلاح:** فهو كما عرفه بعض من علماء السلف بقوله: ''استدعاء العبد ربه عز وجل العنايةَ واستمداده إياه المَعُونة''[2].

ثم إنّ أهل السنة والجماعة يرون أن الدعاء من أهم العبادات، بل هو أهمها وأعظمها، وأنه يجب الإخلاص لله تعالى فيها، ولا يكون الدين له خالصاً إلا إذا كان الدعاء له خالصاً، فإنَّ الله تعالى له دعوة الحق، ودعاءُ غيرِه من الباطل، وهو شرك معه في توحيد عبادته.

وقد اهتمَّ أهلُ السنة قديماً وحديثاً بمسألة الدعاء، وتكلموا في تفاصيله ودقائقه، وأجلَوا للناس أهميته وعظمته وفضله، ووضحوا لهم حاجتهم إليه، وحذروهم من الشرك فيه مع الله تعالى، وبيَّنوا لهم قُبْحه وضرَره، ولهم في ذلك أقوال كثيرة، أنقل شيئاً منها فيما يلي:

---

(١) المصباح المنير: لأحمد بن محمد الفيومي: (ص١٩٤) ؛ والمعجم الوسيط: لمجموعة المؤلفين: (ص٢٨٦).

(٢) شأن الدعاء: للخطابي: (ص٤).

يقول الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ : ( إني لا أَحمِلُ هَمَّ الإجابة، ولكن هَمَّ الدُّعاء، فإذا أُلهِمتُم الدعاء فإنَّ الإجابة معه )[1].

وهذا يدل على جده واجتهاده في الدعاء، وأنه كان يحمِل هَمَّ ذلك، كما يدل على أنَّ مَن دعا الله عز وجل فإجابته منه قريبة.

ويقول الحافظ ابن القيم رحمه الله: ( والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدافعه، ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن )[2].

وهذا فيه بيان أهمية الدعاء لدى السلف، وكيف كانوا يعظمونه، ويرون استجابة حوائِجهم فيه، لعلمهم أن به جلب المنافع ودفع المضار، ولذلك كانوا يخلصون في دعائهم وندائهم، واستغاثتهم، ولم يكونوا يدعون مع الله تعالى أحداً؛ فإن إخلاص التوحيد لا يتم إلا بأن يكون الدعاء كله لله، والنداء والاستغاثة، والرجاء، واستجلاب الخير، واستدفاع الشر له، ومنه، لا لغيره، ولا من غيره، ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾[3]، ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ ﴾[4] ..[5]

فالدعاء له شأنه العظيم، لأن الإخلاص في الدعاء بجميع أنواعه إخلاص التوحيد، ولا يكون التوحيد خالصاً إلا بالإخلاص في الدعاء، فلا يجوز صرفه لغير الله تعالى، لأن الله تعالى له دعوة الحق.

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: لابن القيم: (ص٤٤).

(٢) المرجع نفسه: (ص٢٤).

(٣) سورة الجن: (١٨).

(٤) سورة الرعد: (١٤).

(٥) انظر: الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد: للشوكاني: (ص٤٠).

- **تقرير الشيخ بديع الدين السندي لعقيدة أهل السنة فيما يتعلق بهذا المبحث:**

اهتم الشيخ السندي رحمه الله بتقرير مباحث الدعاء ومسائله، و لم يتكلم -فيما اطلعت عليه من مصنفاته- في مسألة من مسائل العبادات بمثل ما تكلم في مسألة الدعاء، وذلك لعلمه ومعرفته بأهمية الدعاء وعِظَم شأنه، وسأوضح تقريراته من خلال المسائل التالية:

- **المسألة الأولى: بيانه الإخلاص في الدعاء:**

وضح الشيخ السندي رحمه الله أنه يجب أن يُخلَص الدعاء لله تعالى، وذلك لأنه هو الرب الذي يَسمع دعوة الداعي إذا دعاه، ويجيب المضطر، ويقضي الحاجات، وهو قريب مجيب، سميع بصير، أمّا غيره ممن يُدعَون من دونه تعالى فإنهم عاجزون، لا يملكون شيئاً من النفع والضر، بل هم في حاجاتهم أنفسِهم فقراء إلى الله، فضلاً عن أن يُعطوا شيئاً لغيرهم.

يقول الشيخ شارحاً قول الله جلّ شأنه: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۝٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٤٣ ﴾[1].

قال: ( له دعوة الحق؛ لأنه هو رب كل أحد، وهو السميع، وقاضي الحاجات، وأما الذين تُجبرونني على دعائهم والمجيء إلى معابدهم، فإنهم في أنفسهم عاجزون، ومن الله طالِبون، لا يستطيعون إعطاء شيء ولا نَزْعه، ليس لهم حقٌّ بأن يُدعَوا وينادَوا في الدنيا ولا في الآخرة.

(١) سورة غافر: (٤١-٤٣).

بل ذاك إسرافٌ وتجاوزٌ عن الحَدّ؛ لأنه مَن ذا الذي تُمدّ إليه الأيدي أو يُنادَى في الكُرُبات مِنْ دُونِ مَن هو ربُّ العالمين وأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وخير الفاتحين، وخير الغافرين، وخير الفاصلين، وخير الرازقين، العزيز الكريم، الرؤوف الرحيم، العَلِيّ العظيم، السميع البصير، القريب[١] المجيب؟!.. إنه لَعُدوان عظيم وتجاوز عن الحد، وإسراف في الأمر، وأهل غلوٍّ كهذا هم أصحاب النار والجهنَّمِيون ) انتهى[٢].

فتبين من العبارة السابقة للشيخ أنه لا يجوز أن يُدعى أحدٌ غير الله سبحانه، بل هو محض حق لله تعالى، لا ينبغي أن يُشرك معه فيه أحد، وقد ذكر الشيخ رحمه الله في عبارته عدة أمور كدليل على ذلك، هي:

**الأمر الأول:** أن الله تعالى هورب كل أحد؛

ووجه كون ذلك دليلاً على عدم جواز صرف الدعاء لغير الله تعالى ووجوب إخلاصه له أنه مِن حقِّ المنعِم إذا أنعم عليك أن تشكرَه وحده فيما أنعمَ به عليك، وشُكْر الله تعالى على إنعامه عليك –بربوبيته لك- أن تعبده وحده لا شريك له، والدعاء هو العبادة، فلا يجوز صرفه لغير الله جلّ شأنه.

وقد سبق من تقرير الشيخ رحمه الله بيان أنَّ الربّ هو المالك والخالق والمدبر والرازق، وما إلى ذلك من معاني الربوبية، ومعنى ذلك أن الله تعالى هو الذي خلقَنا ورزقَنا وهو الذي يدبّر أمورَنا، ومن كل شيء سألْناه أَعْطانا، وكلّ أولئك من نِعَم الله تعالى وإحسانه علينا، فكيف يُكْفَر بصرف الدعاء إلى مَن لا يَخْلق شيئاً وهم يُخلقون، ولا يملكون نفعَ أنفسهم، وهم يُرزَقون.

---

(١) في الكتاب بدل "القريب": "الكريم" ولعله خطأ مطبعي، وأن الصواب هو ما أثبتُّه؛ بدليل أن وصف "كريم" قد سبق قبله بقليل، ولمناسبة القُرب بالإجابة.

(٢) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: للبديع الدين السندي: (ص٧٣-٧٤).

**الأمر الثاني:** أنَّ الله تعالى هو السميع، فلا يجوز أن يُدعى غيره:

أي أن الله تعالى هو الذي يسمع دعوة الداعي إذا دعاه، وهو الذي يستجيب، فهو الذي يسمع سَمْع الإدراك، وهو الذي يسمع سَمْع الإجابة، وما دام الأمر كذلك فإنه لا يجوز أن يُدعى أحدٌ غيره تعالى، لأنهم لايسمعون، ولو سمِعوا لا يستجيبون، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ۝١٤﴾[1].

ففي هذه الآية برهان واضح ودليل بيِّن على أن مَدْعوِّيهم من دون الله تعالى من الرُّسل والأنبياء، أوالصالحين والأولياء أو غيرهم لا يسمعون، ولو سمعوا ما استجابوا لهم؛ وذلك لأنهم إمّا أموات غير أحياء، لا يَشعرون أيّانَ يُبعثون، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ۝٢١﴾[2] يقول الشيخ السندي رحمه الله تعالى: ( ثبت أن الأموات لا يَشعُرون متى يُبعثون، فكيف يَسمعون دعاء الناس؟! وكيف يستجيبون حاجاتهم؟! )[3] أي أنهم لا يسمعون ولا يستجيبون، فلا يجوز دُعاءهم، بل يجب إخلاصه لله السميع المجيب.

وإما أنهم غائبون لا يسمعون نداءهم ودعاءهم، فكيف يُدعَون، أو جمادات لا تَسمع ولا تعي، فجميع هؤلاء لا يسمعون، ولو سَمِعوا لم يستجيبوا لِدعائهم، فلا سميعَ إلا الله جل شأنه، هو الذي يسمع الدعاء، ويجيب داعِيَه إذا دعاه، فيَجب إخلاص الدعاء له سبحانه، ولا يجوز صرفه إلا إليه.

---

(١) سورة فاطر: (١٣-١٤).

(٢) سورة النحل: (٢٠-٢١).

(٣) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٣٠٢).

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾[١].

يقول الشيخ السندي رحمه الله في شرحه لهذه الآيات الكريمات: ( فما دام الأمر أنه لا يستطيع أحد أن يُسمِع من في القبور، ولا هم يستطيعون سماعَ دعاء أحد، فأنَّى يحِلّ دعاءهم وعبادتهم والنذر لهم؟! )[٢].

ومِن هذا يَعلم كل ذي بصيرة أن ما يفعله بعض الناس عند بعض القبور من طلب المدد والغوث من أهلها، ودعائهم من دون الله عز وجل لكشف الكُرُبات ودفع البليّات بناءً على اعتقادهم بأن الموتى يسمعون؛ إنما هو من سفاهة العقول والشركِ بالله سبحانه وتعالى، فيجب الحذر منه والتوبة.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾[٣].

يقول الشيخ السندي رحمه الله بعد أن ذكر هذه الآيات الكريمات: ( هذه الآية عامة؛ تشمل الأمواتَ من البشر، والقبورَ، والصُّورَ المصنوعة من الأخشاب وغيرِها، يعني أن جميع هذه الأشياء مثيلة لبعضها في أحوالها وظروفها، لا تُبصر ولا تسمع، ولا تمسك، ولا تنتقل، فأنّى تليق عبادة هذه الأشياء بذات انسان هو أشرف المخلوقات؟! )[٤].

---

(١) سورة فاطر: (١٩-٢٢).

(٢) توحيدِ رباني ( التوحيد الرباني ) أردو: للشيخ بديع الدين السندي: (ص٣٠٤).

(٣) سورة الأعراف: (١٩٤-١٩٦).

(٤) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٣٠٤).

فعُلم أن الأموات وقبورهم، والأنداد والأصنام والأوثان أشياءٌ لا تَسْمَع، ولا تستجيب، ولا تسطيع الحركة، فهي محتاجة بنفسها، وما كان كذلك فإن عبادته ودعاءه أمر لا يجوز ولا يليق.

**الأمر الثالث:** لا يجوز صرف الدعاء لغير الله لأنه هو الذي يقضي الحاجات:

أيْ أنّ قاضي الحاجات هو الله تبارك وتعالى، وليس أحد غيره يقضي الحاجات، فكيف يجوز للانسان أنْ يَصرِف دعاءه ويعتمِد على عاجز لا يملك مِن قضاء الحوائج شيئاً؟!! بل إنه لا يستطيع قضاءَ حوائجه نفسِه، لِضعفه وعجْزِه.

يقول الشيخ السندي رحمه الله تعالى: ( لِيتأمّل الانسان بنفسه أنه مرِض، و لم تنفعه الأدوية حتى فاضتْ روحه، وصارت عينه لا تبصر شيئاً، وأذنه لا تسمع شيئاً، وقلبه لا يفقه شيئاً، وصار أنه لا يستطيع أن يتحرك، وتوقّفتْ جميع الأعضاء من تأدية أعمالها التي خلقها الله تعالى من أجلها؛ فرجاء النفع والضر منه، ومَدّ يَد السؤال إليه، أو طلب مدَدٍ منه، والرجاء منه أن يشفع لنا في جناب الله تعالى؛ إن ذلك لَيس بشيء إلا الحماقة العُظمى.

فعلى الإنسانية جَمْعاء أن تصل علاقتها برب العالمين الذي هو قائم منذ الأزل، بصيرٌ، سميعٌ، عليم، سميعُ دعوة الداعي إذا دعاه، مفرِّج الكرُبات )[(١)].

فعُلم أن طلبَ المدد من شخصٍ عاجزٍ لا يملك نفعَ نفسه وقضاءَ حاجته، والاستغاثةَ منه ورجاءَ قضاءِ الحوائج منه، لَمِنَ السفاهة والبلاهة والحماقة، ولذلك ينبغي أن يُخلَص الدعاء لله رب العالمين الذي هو قادر في كل وقت على كشف الكُرُبات وقضاءِ الحاجات، ودفع المصائب ورفع البليّات.

---

(١) المرجع نفسه: (ص٣٠٤-٣٠٥).

- **المسألة الثانية: تحقيق التوحيد أهمّ أسباب إجابة الدعاء:**

قد بين الشيخ رحمه الله أنّ أهم أسباب إجابة الدعوات تحقيق التوحيد، كما ورد في حديث النبي ﷺ أنه قال: ﴿مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِيْ وَيُمِيْتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، مُخْلِصًا بهَا وَجْهه ورُوحهُ، مُصَدِّقًا بهَا لِسَانهُ وَقَلْبه، إلاَّ فَتقَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاء فتْقاً حَتَّى يَنْظُرَ الربُّ إِلَى قَائِلِهَا مِنْ أهلِ الدُّنيا، وَحُقَّ لِعَبْدٍ إذا نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يُعْطِيَهُ سُؤْلَهُ﴾(١).

قال الشيخ السندي رحمه الله تعليقاً على هذا الحديث الشريف: ( سبحان الله! ما أعظم شأن الموحِّد! أن الله تعالى ينظر إليه بنظر الرحمة، ويعطيه سُؤْلَه )(٢).

أيْ: أنه سبحانه وتعالى يُعطيه ما سأله وطلبه رحمةً منه وإحساناً، وذلك لتوحيده لله تعالى وإخلاصه الدِّين له، فتبيّن أنَّ مِن آثار تحقيق التوحيد إجابة الدَّعَوات، ولذلك فإنَّ أعظمَ شيء يدعو به الانسان ربه أن يُثبِّته على التوحيد، ويُعيذَه من الشرك، كما قال الشيخ رحمه الله: ( مَن مات وهو مشرك لم يُغفرْ له، ولذا ينبغي التعوُّذ بالله تعالى من الشرك والاستغفار منه في كل حِين )(٣) أعاذنا الله تعالى من الشرك، وغفر لنا ذنوبَنا، إنه هو الغفور الرحيم.

وقد تبين مما سبق في هذا المبحث أن الدعاء شأنه عظيم، وأنه من أعظم العبادات، وأنفع ما يكون في قضاء الحاجات وكشف الكُرُبات، به يُستجلَب الخير ويُدفع الشر، ولا يجوز صرفه لغير الله تعالى، والشرك فيه أعظم الذنوب وأعظم الظلم، وتحقيق التوحيد فيه من أعظم أسباب إجابة الدَّعوات.

---

(١) سبق تخريجه في المبحث السادس من الفصل الأول من هذا الباب.

(٢) توحيدِ رباني (التوحيد الرباني) أردو: لبديع الدين السندي: (ص٥٤).

(٣) المصدر نفسه: (ص٦١).